∃+

عيد الصَّليب المجيد من الوجهة التَّاريخيَّة

تمهيد

يقول البابا أثناسيوس الرَّسولي (٣٢٨-٣٧٣م):

[أعطانا السيِّد المسيح إلهنا الصَّليب سلاحاً نافذاً ينفـــذ في النَّار والهواء والماء والأرض، ولا يحجزه شيء. فهو قوَّة الله الـــتي لا تُقاوَم، وتهرب من صورته الشياطين حينما يُرسم عليها. هو قوَّة المسيح للخلاص، والملائكة يخضعون لقوته].

وعجب الصَّليب وسرِّه، والذي لا يعرفه غير أبناء السِّر، أنه علامـــة المجد والهوان معاً، فهوانه الظَّاهر مجدٌ خفي. وهو الضَّعف والقـــوَّة في آن واحد، لأنَّ قوَّة المسيح لا تكمُل إلاَّ في الضَّعف. وهو الألم الحسي، والعزاء السِّري. وهو الضِّيق والحزن حاوياً فيه السَّلام والفرح. هو سرُّ المسيحيَّة. فالمسيحيَّة بدأت من عند الصَّليب ولا تكتمل وتدوم إلاَّ به. ومـــن يريـــد المسيح فلابد أن يقبله بصليبه حتى الموت أولاً، وحينئذ تظهر حياة يسوع فيه، ويحيا به. فالذي يرضى بموت الصَّليب لا يستطيع العالم أن ينال منـــه شيئاً.

الأحداث التَّاريخيَّة الأساسيَّة لعيد الصَّليب

ينحصر الحديث عن الجانب التَّاريخي في هذا الفَصل، في ثلاثة أحداث رئيسيَّة للصَّليب هي:

الحدث الأوَّل: ظهور علامة الصَّليب في السَّماء.

الحدث الثَّاني: بحث الملكة هيلانه عن خشبة الصَّليب في أورشليم.

الحدث الثَّالث: استرجاع الصَّليب من بلاد الفُرس إلى أورشليم في القرن السَّابع الميلادي.

وسنبحث في هذه الأحداث الثَّلاثة من مصدرين؛ المصدر الأوَّل، هو كتاب ''مجموع أصول الدِّين ومسموع علم اليقين''، للمؤتمن بن العسَّال، والمصدر الثَّاني هو كُتُب الصَّلوات الكنسيَّة، التي تُستخدم في هذا اليَوم.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بخصوص الحدث الثَّالث للصَّليب، لا يأتي أي ذكر عنه في كُتُب الصَّلوات الكنسيَّة القبطيَّة لهذا اليَوم، باستثناء ما أورده السِّنكسار في طبعاته الحديثة، نقلاً عن ابن كبر (+ ١٣٢٤م)، كما سنرى فيما بعد. أمَّا الحدثان الأوليان، فتدور حولهما نصوص وتسابيح العيد، باعتبار الحدث الأوَّل منهما سبباً مباشراً للثَّاني.

أولاً: الجانب التَّاريخي لعيد الصَّليب عند المؤتمن بن العسَّال[١]

كَتَب المؤتمن بن العسَّال[٢] كتاباً مهماً عنوانه: ''مجموعِ أصول الدِّين ومسموع علم اليقين''[٣]، وهو كتاب يضم سبعين باباً في جزأين،

١- قام الرَّاهب الأخ وديع الفرنسيسكاني بعمل دراسة موسَّعة عن المؤتمن بن العسَّال، وتحقيق كتابه ''مجموع أصول الدِّين ومسموع علم اليقين''، في سبعة كُتُب، صدرت ما بين سنة ١٩٩٧م وسنة ٢٠٠٢م، وذلك ضمن إصدارات المركز الفرنسيسكاني للدِّراسات الشَّرقيَّة المسيحيَّة، بما لا يدع مكاناً لمجتهد بأن يضيف المزيد.

٢- المؤتمن بن العسَّال هو أصغر أولاد العسَّال، وكان كاهناً بكنيسة السيِّدة العذراء المعلَّقة بمصر القديمة، وعمل حيناً في قلاّية البابا كيرلس بن لقلق (١٢٣٥- ١٢٤٣م)، وتوفي في الرُّبع الأخير من القرن الثَّالث عشر.
الرَّاهب الأخ وديع الفرنسيسكاني، دراسة عن المؤتمن بن العسَّال وكتابه ''مجموع أصول الدين''، وتحقيقه، المركز الفرنسيسكاني للدِّراسات الشَّرقيَّة المسيحيَّة، القاهرة – القُدس، ١٩٩٧م، ص ١٢٩، ١٣٠، ١٤٥

٣- تمَّ تأليف الكتاب ما بين سنة ١٢٦٣م وسنة ١٢٦٥م. ومن المحتمل أن يكون

يتحدَّث في شتى الموضوعات الفلسفيَّة والعقائديَّة والقانونيَّة واللِّيتورجيَّة ... الخ. والباب السَّابع والأربعون منه بعنوان: ''في وجوب إكرام الصَّليب وتعظيمه وتقبيله، ورشم مثاله على الأعضاء البدنيَّة، وذكر الآيات التي ظهرت بواسطته''. وأقتطعُ من هذا البَاب ما يهمُّنا الآن في موضوع عيد الصَّليب تاريخياً، ولاسيَّما الفقرات التي يرد فيها اقتباسٌ من كتاب اسمه ''تاريخ السَّامرة'' المسمَّى ''سفر يوشع''[٤].

النَّص:

عن الحدث الأوَّل: ظهور علامة الصَّليب في السَّماء[٥]

– وقد علمت أيها المؤمن، أنَّ إيمان قسطنطين الملك، إنما كان بأنَّ الله (تعالى) أراه في السَّماء، وقيل في المنام، مثال الصَّليب، وسمع صوتاً من السَّماء يقول: ''احمل هذا المثال، تغلب أعداءك''. وكان كذلك، فانتقل من الكُفر إلى الإيمان، وإلى معرفة بالله (تعالى). وشيَّد الله به الدِّين، وأقام أركانه، وثبَّت بمملكته عُمُدَه، وأعزَّ بسطلنته الشَّعب المسيحي، وكثروا في أيامه، ونموا جداً، إلى أن اتَّسعت ممالكهم، وامتلأت الأرض بهم.

أبو البركات بن كبر (+ ١٣٢٤م) قد اطَّلع على هذا الكتاب، لأنَّه يحدِّد أنه يقع في سبعين باباً على جزأين.
الرَّاهب الأخ وديع الفرنسيسكاني، مرجع سابق، ص ١٧٩، ١٨٤م.

٤- حاولتُ أن أبحث عن أصل هذا الكتاب، أو هذا السِّفر، فوجدتُ له دراسة بالإيطاليَّة، ضمن دراسة شاملة لهذا البَاب الـ ٤٧ لكتاب المؤتمن، وهي لبارتولوميو بيروني Bartolomeo Pirone منشورة في المرجع التَّالي:
Studia Orientalia Christiana, *Collectania 35-36, Studia – Documenta*, The Franciscan Center of Christian Oriental Studies, Cairo – Jerusalem, 2003, p. 10-32.
ولم أستطع ترجمتها، ولم أوفَّق في أيِّ مساعدة في ذلك.

٥- العنوان من عندي للتَّوضيح.

– ولَمَّا ملك بعده قسطنطين ولده، ظهر على المقبرة في أيامه، في أورشليم، في السَّاعة الثَّالثة من عيد يوم العنصرة، صليبٌ عظيمٌ من نـور، ولم يظهر لواحد، ولا لاثنين، بل لكلِّ أهل المدينة، جهـراً، ورآه النَّـاس بأعينهم، ثلاث ساعات، حتى أنَّ شُعاعه غلب علـى شُـعاع الشَّـمس وحجبها، وتنصَّر عند رؤية هذه الأعجوبـة ألـوفٌ كـثيرة، وصـاروا مسيحِّيِن. وهذا تواتره صحيح.

عن الحدث الثَّاني: بحث الملكة هيلانه عن خشبة الصَّليب[٦]

– ومن حصر صفات هذا المثال الشَّريف، أنَّ اليهود لَمَّا جعلوا خشبته المتشرِّفة بتعليق الجسد المسيحي عليها، تحت كـوم الجلجلـة المترفعـة، وأخفوها، وكشفتها السِّت هيلانة، والدة قسطنطين، الملك المذكور، بنثار الدَّنانير على الكوم المذكور، إلى أن وجدت الخشبة مع الخشبتين، اللَّـتين صُلب اللِّصان، مع السيِّد عليهما.

– فلم تعلم أيّهن الخشبة المخصوصة به، فاستدعت هيلانـة جسـد ميت، وأمرت بوضع الخشبات الثَّلاث عليه، فوُضع خشبتا اللِّصين عليـه، فلم يتحرَّك الميت، ولم يقُم، ووضع خشبة السيِّد عليه، فللوقت قام حيـاً ممجِّداً للسيِّد المسيح (له المجد). وهذا تجده مسطوراً في التَّواريخ.

– وممَّا يصدِّق هذا النَّقل، ويحقِّق آيته ومعجزته، ما تضمَّنه "تـاريخ السَّامرة"، المسمَّى "سفر يوشع"، وكتاب "البيان" وهو المعروف بـــ "سفر الجلوات"، وتدوينهم هذه الآية فيه، آية ثانية؛ لأنَّ هذه وأمثالهـا مرادهم أن يخفوها، ولو ادَّعَينا عليهم بها لجحدوها. وإنما قدرة الله أرشدتهم إلى إيرادها في كتابهم، ليكون اعترافهم بها آية ثابتة لنا. وفيه مِـن شـطح

٦– العنوان من عندي للتَّوضيح.

النَّصارى وأنبياء بني إسرائيل ما يكافئهم الله عليه.

قالوا: "إنَّ في أيام قسطنطين الملك، وُجدت خشبة المسيح، التي صُلب عليها. وكان لَمَّا قُتِل، صُلب بين اثنين قاتولين (كذا)، ودُفن ببيت المقـدِس، وكان هناك حاضراً حكيمٌ منجمٌ حاذق، يهودي، ودفن الخشبة في حاكورة، وقال لمقدِّمي اليهود: "يجئ وقت تُطلب منكم، فإن لم توجد تملكوا.

– وقد دَفنتُ هذه الخشبات الثَّلاث، متى طلبـوا مـنكم، احفـروا، تصيبوهن، وأنا أعرِّفكم معجزاً، تقولوا: هذه إذا قُدِّمت لميت قام، قولوا: هذه خشبة يوشوا، أي يشوع، وأنتم تتخلَّصوا". وكذلك فعلوا، وقالوا. هذا نص ما تضمَّنه كتاب "السَّامرة" المشار إليه. والفضل ما شهدت به الأعداء[٧].

ثانياً: الجانب التَّاريخي لعيد الصَّليب في كُتُب الصَّلوات الكنسيَّة

وعن الوجهة التَّاريخيَّة لعيد الصَّليب، سأركِّز حديثي على ما أوردته كُتُب الصَّلوات الكنسيَّة لهذا العيد في الكنيسة القبطيَّة، مع شرح للجوانب التَّاريخيَّة كلَّما لزم الأمر.

أمَّا هذه الكُتُب الطَّقسيَّة التي تستخدمها الكنيسة القبطيَّة في هذا اليَوم فهي:

- كتاب الإبصاليَّات والطُّروحات الواطس والآدام[٨].
- الدِّفنار[٩].

٧– المؤتمن بن العسَّال، مجموع أصول الدِّين ومسموع محصول اليقين، المجلد الثَّاني: نـص الأبواب ٢٠–٧٠ والخاتمة، تحقيق الأخ وديع الفرنسيسكاني، مؤلَّفات المركز الفرنسيسـكاني للدِّراسات الشَّرقيَّة المسيحيَّة، القاهرة – القدس، ١٩٩٩م، ص ٢٠٥، ٢٠٦

٨– اهتم بطبعه القُمُّص فيلوثاؤس المقاري والمعلِّم ميخائيل جرجس في عهد البابا كيرلس الخامس سنة ١٩١٣م.

- كتاب دورتي عيدي الصَّليب والشَّعانين وطروحات الصَّوم الكبير والخمسين(١٠).
- السِّنكسار(١١).
- الأبصلموديَّة المقدَّسة السَّنويَّة، وخدمة الشمَّاس والألحان، وكتاب المدائح الرُّوحيَّة(١٢).

الحدث الأوَّل: ظهور علامة الصَّليب في السَّماء

نتقابل مع حدث ظهور علامة الصَّليب للإمبراطور قسطنطين Constantine الكبير (٣٢٣ - ٣٣٧م) في السَّماء، في إبصاليَّة العيد الواطس حيث تقول الإبصاليَّة: "قسطنطين محب المسيح، رأى علامة الصَّليب في جَلَد السَّماء، وآمن بيسوع المسيح ... وأيضاً صنع رسمه فغلب في الحروب". وقد كرَّرت الإبصاليَّة الآدام نفس المعنى فقالت: "قسطنطين الملك رأى صليب ملك المجد في وسط السَّماء".

أمَّا كتاب الدِّفنار في طرحه بلحن آدام فلم يضف جديداً على ما ذكرته الإبصاليَّة الآدام، فيقول: "السَّلام للصَّليب الذي أبصره قسطنطين في الحرب". ويضيف الطَّرح الواطس من الدِّفنار أوصافاً للصَّليب بقوله: "علامة الخلاص الذي رآه قسطنطين مضيئاً في وسط السَّماء".

وعدا ذلك لا نجد ذكراً لهذا الحدث الأوَّل في صلوات وتسابيح

٩- طُبع في عهد البابا كيرلس الخامس، وعنى بطبعه القس دوماديوس البراموسي سنة ١٩٢٢م.
١٠- عني بطبعه القُمُّص فيلوثاؤس المقاري والقُمُّص برنابا البراموسي والقس أقلاديوس جرجس سنة ١٩٢١م.
١١- وضع أنبا بطرس الجميل أسقف مليج والأنبا ميخائيل أسقف أتريب والأنبا يوحنا أسقف البرلُّس وغيرهم من الآباء القدِّيسين. والمهتم بطبعه القُمُّص عبد المسيح ميخائيل والقُمُّص أرمانيوس حبشي شتا البِرماوي في عهد الأنبا يؤانس التَّاسع عشر سنة ١٩٣٥م.
١٢- وهي مدائح جمعها المعلِّم فرح عبد المسيح والأرشيدياكون توفيق إبراهيم، وطُبعت سنة ١٩٥٩م.

الكنيسة في هذا اليَوم.

إنَّ التَّقليد الكنسي الشِّفاهي والمتوارث عبر الأجيال كما تسلَّمته وتناقلته بعض الكنائس الشَّرقيَّة، هو أنَّ صليباً ظهر للإمبراطور قسطنطين في السَّماء، مع عبارة "بهذا تغلب" وذلك أثناء حربه مع مكسنتيوس Maxentius قيصر رومية. فصنع الإمبراطور قسطنطين حينئذ علامة الصَّليب راية لجنوده، وبقوَّة صليب المسيح انتصر على أعدائه. ومن ثمَّ اعتنق قسطنطين الدِّيانة المسيحيَّة — وإن كان في أواخر حياته وقبل موته — وأصدر مرسوم التَّسامح الدِّيني سنة ٣١٢م وهو المعروف بمنشور ميلان، فصارت المسيحيَّة واحدة من الدِّيانات المعترف بها في الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة.

ولكن قبل حادثة ظهور الصَّليب للإمبراطور قسطنطين في السَّماء، كان قسطنطين يود الدِّيانة المسيحيَّة منذ صبوَّته إقتداء بأبيه قسطنديوس Constantius خلورس الذي كان قيصراً على بريطانيا وغاليا (فرنسا)، والذي فضلاً عن أنه لم يكن يضطَّهد المسيحيِّين نظير رفاقه القياصرة في نيقوميديا Necomedia ورومية والإسكندريَّة، كان يسمح لتابعيه أن يدينوا بالدِّيانة المسيحيَّة علناً. حتى أنَّ كثيرين من المسيحيِّين حصلوا على مناصب عالية بين رجال دولته. ولمَّا كان قسطنطين مقيماً جوار الإمبراطور ديوكلتيانوس في مدينة نيقوميديا، ازداد ميلاً نحو المسيحيِّين لأنَّ صبرهم على الاضطهاد مع حُسن سيرتهم وتعلُّقهم بواجباتهم المدنيَّة، فضلاً عن الدِّينيَّة، كان أمامه هو البرهان على سمو الدِّيانة المسيحيَّة. ولمَّا ارتقى العرش الإمبراطوري أخذ يقرِّب منه المسيحيِّين مُظهراً لهم تمام إخلاصه نحوهم وثقته بهم، حتى أنَّ أكثر جنوده كانوا من المسيحيِّين. ولما نشبت الحرب بينه وبين مكسنتيوس وظهرت له علامة الصَّليب في السَّماء جعلها راية لجنوده، وبانتصاره اعتنق المسيحيَّة.

ولكن من الغريب حقاً أنَّ المؤرِّخ الكنسي ذائع الصِّيت والذي أطنب كثيراً في مدح الإمبراطور قسطنطين، والذي كان مقرَّباً منه، وهو المؤرِّخ يوسابيوس القيصري (٢٦٠-٣٤٠م)، قد أورد في مؤلَّفه "تاريخ الكنيسة" شرحاً وافياً للحرب التي نشبت بين قسطنطين الملك وبين عدوِّه مكسنتيوس، بدون أن يذكر مطلقاً حادثة ظهور صليب في السَّماء للإمبراطور قسطنطين، أو حتى مجرَّد التَّنويه عنها، سوى ما ذكره يوسابيوس عن أنَّ قسطنطين بعد أن دخل روماً ظافراً أمر أن يوضع في يد التِّمثال الذي أقيم تخليداً لانتصاره صليباً تُنقش عليه الكتابة التَّالية باللُّغة الرُّومانيَّة: "بهذه العلامة المقتدرة دليل الشَّجاعة الحقيقيَّة، أنقذتُ مدينتكم وحرَّرتها من نير الطَّاغية ..."(١٣).

على أنَّ هذا الحدث لا علاقة له بمناسبة العيد ذاته — كعيد كنسي — إلاَّ في كونه سبباً في اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحيَّة، وفي تحوُّل الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة من الوثنيَّة إلى المسيحيَّة بعد ذلك، وفي سعى الملكة هيلانه إلى أورشليم للبحث عن خشبة الصَّليب المقدَّسة. وهذا يأتي بنا إلى الحدث الثَّاني وهو البحث عن خشبة الصَّليب المقدَّسة في أورشليم.

الحدث الثَّاني: البحث عن خشبة الصَّليب المقدَّسة في أورشليم

وسأعرضُ أولاً لاعتقاد الكنيسة القبطيَّة التَّاريخي لهذا الحدث من خلال نصوص صلواتها وتسابيحها، ثمَّ أُعقِّبُ على الحدث بما تعتقده الكنائس الشَّرقيَّة الأخرى.

فأوَّل ذكر لما فعلته الملكة هيلانه، تذكره الإبصاليَّة الواطس وكذلك الإبصاليَّة الآدام فتقول: "فقامت هيلانه وذهبت إلى مدينة الرَّب أورشليم

١٣- تاريخ الكنيسة ليوسابيوس، ك ٩: ف ٩: ١٠، ١١

وطلبت باجتهاد خشبة الصَّليب المقدَّسة". أمَّا كتاب الدِّفنار في طرحه بلحن واطس فهو يشرح بالتَّفصيل قصَّة اكتشاف الصَّليب المقدَّس، فيقول في ذلك:

"اشتهت الملكة هيلانه أن ترى خشبة الصَّليب الذي صُلب رب المجد عليه، و لم تمل البتَّة تطلبه باشتياق حتى وجدته باجتهاد من قبَل أمانتها فيه ... لأنَّ هيلانه الملكة قامت وأخذت ثلاثة آلاف جندي ومضت إلى أورشليم تطلب الصَّليب، ثمَّ ذهبوا معها إلى موضع الجلجلة (الإقرانيون) فصلَّى يهوذا قائلاً: أيها الرَّب الإله ضابط الكُل، أدوناي رب الصَّباؤوت، الجالس على الشَّاروبيم اظهر لنا. يا من قاس السَّماء بشبره والأرض بقبضته، أظهر صليبك لكي يتمجَّد اسمك القدُّوس. وفي تلك السَّاعة افترقت الأرض إلى ثلاثة طرق، وأعبق طيب رفيع عظيم الكرامة. فلمَّا حفروا أخرجوا ثلاثة صلبان معاً، ولكن لم يعلموا أيُّها هو صليب مخلِّصنا. وفي تلك السَّاعة جازوا بميِّت، فأمر يهوذا أن يضعوا الميِّت، ولما وضعوا عليه الصَّليب الأوَّل والثَّاني لم يقم، وحين وضعوا عليه الثَّالث جلس الميِّت، فخرَّت الملكة هيلانه وسجدت له وجميع الشَّعب صارخين قائلين: مباركٌ الرَّب يسوع وصليبه المحيي الذي صُلب عليه حتى خلَّص شعبه".

ثمَّ يعود كتاب الدِّفنار بعد ذلك وفي نفس الطَّرح يقول بتفصيل آخر: "السَّلام لك أيها الصَّليب الذي طلبته الملكة هيلانه باجتهاد حتى وجدته مع المسامير".

أمَّا طرح عيد الصَّليب الذي ورد في كتاب دورة عيدي الصَّليب فهو نفس كلمات طرح الدِّفنار بلحن واطس، إلاَّ أنه أضاف جملة قبل صلاة يهوذا السَّابق ذكرها من أجل إظهار خشبة الصَّليب بقوله: "فتشاور اليهود مع بعضهم قائلين لو بلغنا أن نموت كلُّنا لا نُظهر الصَّليب".

ثمَّ يأتي السِّنكسار الذي يوضِّح جوانب أخرى لهذا الحدث، فيذكر أنَّ اختفاء الصَّليب تحت كومة الجلجثة كان بسبب أنه صارت عادة عند اليهود وعلى مدى مائتي سنة أن يلقوا بالقمامة ومخلَّفاهم على قبر يسوع النَّاصري لكثرة الأعاجيب التي ظهرت من قبر المخلِّص من إقامة الموتى وإبراء المقعدين ... الخ.

وعن يهوذا الذي ورد ذكره في الدِّفنار وطرح الصَّليب في كتاب دورتي عيد الصَّليب، يذكر السِّنكسار أنه رجل كهل، كان يعرف مكان الصَّليب، وقد استعانت به الملكة هيلانه، ولكنه في البداية أنكر، ثمَّ اضطر للاعتراف بعد أن شدَّدت الملكة عليه.

وعلى ذلك نرى أنَّ الكنيسة القبطيَّة تحدِّد:

- سَفَر الملكة هيلانه صحبة ٣٠٠٠ جندي للبحث عن الصَّليب المقدَّس في مدينة أورشليم.
- كان اليهود قد طمسوا معالم القبر المقدَّس بإلقاء القمامة عليه مدَّة طويلة من الزَّمن.
- محاولة اليهود التَّكتُّم على مكان الصَّليب والقبر المقدَّس لكثرة العجائب التي ظهرت منه.
- رجلٌ كهل اسمه يهوذا هو الذي دلَّ على مكان الصَّليب.
- نص صلاة يهوذا.
- افتراق الأرض إلى ثلاثة طرق، وأعبق طيب رفيع الكرامة.
- حفر الجنود عند الجلجثة حتى وجدوا ثلاثة صلبان مع المسامير.
- عُرف صليب يسوع من إقامته لميِّت كانوا عابرين به من هناك.
- سجود الملكة هيلانه وهتاف الشَّعب: "مباركٌ الرَّب يسوع المسيح وصليبه المحيي الذي صُلب عليه حتى خلَّص شعبه".

وتربط كل الكنائس الشَّرقيَّة بين البحث عن صليب المخلِّص وبين الملكة هيلانه، حين توجَّهت إلى أورشليم، وفتَّشت باجتهاد عن محل الصَّلب والآلام.

ويذكر المؤرِّخ ثيؤدوريت (٣٩٣- ٤٦٦م) أنَّ الملكة التقيَّة هيلانه تجشَّمت أتعاب السَّفر إلى أورشليم، وهي تناهز من العمر ثمانين سنة تقريباً. أمَّا القدِّيس أمبروسيوس (٣٣٩-٣٩٧م) فهو أوَّل من ربط بين البحث عن الصَّليب وبين الملكة هيلانه، وذلك في تقريظه لثيؤدوسيوس الكبير[١٤]، وتبعه في ذلك القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) وغيره من الآباء. أمَّا القدِّيس كيرلس الأورشليمي (٣١٥-٣٨٦م) في مقالاته الرَّابعة والعاشرة والثَّالثة عشر، وفي رسالته إلى قسطنديوس الملك، يذكر قصَّة اكتشاف الصَّليب المقدَّس في زمن قسطنطين الملك سنة ٣٣٧م، وذلك أثناء الحفر لبناء بازيليكا كان الإمبراطور قد أمر بتشييدها على القبر المقدَّس بدون أن يذكر الملكة هيلانه[١٥]. وكان قد مرَّ على اكتشاف الصَّليب حوالي ٢٠ سنة[١٦].

أمَّا القدِّيس جيروم (٣٤٢-٤٢٠م) والذي عاش قريباً من مكان هذه الأحداث فقد صمت عن ذكر شئ منها. ويشهد سقراط (٣٨٠-٤٥٠م) المؤرِّخ في الفصل العاشر من تاريخه الكنسي على أنَّ الملكة هيلانه وجدت الصَّليب، وأرسلت جزءاً منه إلى القسطنطينيَّة.

ويتَّفق المؤرِّخ ثيؤدوريت (٣٩٣- ٤٦٦م) مع المؤرِّخ سقراط

14- Cross, F.L. & Livingstone, E.A. The Oxford Dictionary of The Christian Church (ODCC), (2nd edition), 1988, p. 710.

15- *Ibid*., p. 710.

١٦- العظة التي ألقاها القدِّيس كيرلس الأورشليمي كانت سنة ٣٤٨م. وأمَّا اكتشاف الصَّليب المقدَّس فقد حدث سنة ٣٢٦م.

(٣٨٠_٤٥٠م) على أنَّ الملكة وجدت أيضاً المسامير مع الصَّليب المقدَّس[١٧]، فأرسلتها إلى ابنها الإمبراطور قسطنطين الذي ثبَّت مسماراً منها في خوذته الملكيَّة.

وجدير بالذِّكر أنَّ كل الكنائس الشَّرقيَّة تعتقد بأنَّ شيخاً يهودياً اسمه يهوذا هو الذي دلَّ على مكان الجمجمة، حيث كان يصير هناك قصاص المجرمين قبل خراب أورشليم مفترضاً وجود الصَّليب فيه.

ويذكر غريغوريوس أسقف لاطور (+ ٥٩٤م) أنَّ الذي دلَّ على مكان الصَّليب هو يهوذا الذي سُمي بعد المعموديَّة كرياكوس. وكان في ذلك المكان (مكان الجمجمة) آنئذ هيكل وثني للزُّهرة بناه الملك أدريانوس، فأمرت الملكة هيلانه بهدمه وحفر الأرض للبحث عن الصَّليب المقدَّس.

ولا يذكر التَّقليد الشِّفاهي القبطي شيئاً عن هذا الهيكل الوثني، بل ذكر أكواماً من القمامة كانت تُلقى في هذا المكان. ولربما يمكننا جمع الأمرين معاً. فسقراط المؤرِّخ يذكر أنَّ السَّبب في اختفاء المكان هو تغطيته بالأتربة على شكل هضبة، أقيم فوقها هيكل وثني للزُّهرة، إمعاناً في إخفاء الصَّليب والقبر المقدَّس.

١٧- يخصِّص السِّنكسار الماروني يوم ٨ حزيران/ يونيو لتذكار وجود مسامير السيِّد المسيح. ويذكر أنَّ القدِّيسة هيلانه لمَّا وجدت صليب المسيح في أورشليم، وجدت معه المسامير واللَّوح الذي كُتب عليه: "يسوع النَّاصري ملك اليهود".
فعملت المسمار الأوَّل لجاماً لفرس ابنها قسطنطين الملك، يتَّخذه في الحروب للانتصار. والمسمار الثَّاني وضعته ذخيرة في القسطنطينيَّة ثمَّ نُقل إلى فرنسا ليد الملك لويس التَّاسع. والمسمار الثَّالث أُلقي في البحر حيث كانت تغرق المراكب فنجت من الغرق.
ويقول بعض العلماء أنَّ المسامير كانت أربعة، واحد منها جعله الملك قسطنطين في تاجه. أمَّا اللَّوح فهو محفوظ الآن في روما في كنيسة الصَّليب القريبة من كنيسة القدِّيس مار يوحنا لاتران.

أمَّا صلاة يهوذا التي أوردها نصوص الصَّلوات القبطيَّة، فلم ترد في غيرها من الكنائس الشَّرقيَّة.

وتعتقد كلُّ الكنائس الشَّرقيَّة أنه بعد تعب ومشقَّة عظيمين، وجدوا ثلاثة صلبان، وليس صليباً واحداً، كما وجدوا المسامير أيضاً. ولا تتَّفق تقاليد الكنائس الشَّرقيَّة المختلفة حول نوع الأعجوبة التي حدثت لاكتشاف صليب الرَّب من بين الثَّلاثة صلبان، فهي إمَّا شفاء مريض أو إقامة ميِّت، ولكنها كلَّها تتَّفق على وجود ثلاثة صلبان بالجلجلة بواسطة الملكة هيلانه، وأنَّ صليب المسيح قد عُرف بواسطة معجزة[١٨].

فيفيد تقليد الكنيسة القبطيَّة بأنه أمكن التَّعرُّف على صليب الرَّب بإقامة ميِّت بعد وضع الصَّليب عليه. وهو ما يذكره بولينوس (+ ٤٣١م) أسقف نولا Nola في رسالته إلى سفيروس حين يخبره بأنَّ صليب الرَّب قد عُرف من إقامته لميِّت قبل دفنه.

أمَّا القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧_٤٠٧م) في عظته الخامسة والثَّمانين على إنجيل القدِّيس يوحنا فيذكر أنه أمكن التَّعرُّف على صليب الرَّب بسهولة بين الثَّلاثة صلبان، فيقول:

> [... لمَّا فُتِّش عنها (أي على خشبة الصَّليب) فيما بعد، وُجدت الصُّلبان الثَّلاثة ملقاة معاً، ولكن لم يكن صليب الرَّب مجهولاً، إذ وُجد كما هو في الوسط، وعليه العنوان].

إلاَّ أنَّ التَّقليد السِّرياني الأنطاكي يقول بأنَّ الملكة هيلانه وهي ابنة قسِّيس سرياني من جوار الرَّها، قد نذرت أنه إذا استجاب الرَّب صلاتها وآمن ابنها الإمبراطور قسطنطين بالمسيح، ستسعى لتفتِّش عن خشبة

18- ODCC, 2nd edition, p. 710.

الصَّليب في أورشليم. وهكذا فعلت بعد أن استجاب الرَّب لصلاتها وتنصَّر ابنها قسطنطين، فذهبت إلى أورشليم وبحثت عن خشبة الصَّليب المقدَّس، فوجدتها، وجرت معجزات باهرات للعديد من المرضى الذين لمسوا تلك الخشبة، حتى أنَّ ميِّتاً وُضعت على جثمانه خشبة الصَّليب فعادت إليه الحياة[١٩].

ويقول روفينوس (٣٤٥-٤١٠م) المؤرِّخ في تاريخه الكنسي[٢٠]: إنَّ الصَّليب المقدَّس قد وُجد في عهد البطريرك مكاريوس الأورشليمي (٣١٣-٣٣٤م)، وقد أمكن التَّعرُّف عليه من شفائه لامرأة كانت مقاربة الموت.

كما يذكر سقراط (٣٨٠-٤٥٠م) المؤرِّخ أنَّ الملكة هيلانه وجدت ثلاثة صلبان على رمية حجر من مكان القبر المقدَّس، وقد وُجد صليب الرَّب وعليه العنوان الذي كتبه بيلاطس. وقد تأكَّدوا من الصَّليب المقدَّس لمَّا وضعوه على امرأة مريضة فشُفيت.

ويشهد سوزومين المؤرِّخ (أوائل القرن الخامس) والذي كان معاصراً لسقراط، بأنَّ الصَّليب قد عُرف من شفاء امرأة مصابة بمرض ثقيل.

فلمَّا شاع خبر اكتشاف الصَّليب المقدَّس في المدينة المقدَّسة وضواحيها، هرع المسيحيُّون لمشاهدة الصَّليب، ونظراً لتقاطر الجموع، وقف البطريرك مكاريوس على موضع عال، ورفع الصَّليب أمام الجميع، فسجدوا له بورع ومهابة.

أمَّا الصَّلوات التي ذكرتها نصوص الصَّلوات القبطيَّة فقد انفردت بها

١٩- المجلة البطريركيَّة، العدد ١٣٨، تشرين الأوَّل ١٩٩٤م، ص ٤٨٣
٢٠- كتاب ١٠، فصل ٧، ٨

الكنيسة القبطيَّة دون غيرها من الكنائس الشَّرقيَّة، حيث تقول هذه الكنائس الشَّرقيَّة: إنَّ جميع الشَّعب قالوا: ''يارب ارحم''. وقد حدث هذا في سنة ٣٢٦م.

ويذكر التَّاريخ أنه من جملة الذين آمنوا بعد اكتشاف الصَّليب المقدَّس كان يهوذا الآنف الذِّكر، والذي سُمي بعد المعموديَّة ''كرياكوس''، وقيل إنه صار فيما بعد بطريركاً على أورشليم، واستشهد في عهد الإمبراطور يوليانوس الجاحد.

الحدث الثَّالث: استرجاع الصَّليب من بلاد الفُرس إلى أورشليم

قبل الحديث عن هذا الحدث الثَّالث وتأثيره على الاحتفال بعيد الصَّليب في الكنائس الشَّرقيَّة المختلفة، يلزمنا هنا إلقاء بعض الضَّوء على الملابسات التَّاريخيَّة التي صاحبت هذا الحدث.

ملابسات هذا الحدث

ملك الإمبراطور هرقل Heraclius سنة ٦١٠م واستمر حُكمه لمملكة الرُّوم إلى سنة ٦٤١م. وفي أوَّل سنة لُملكه - وقد ضعفت المملكة البيزنطيَّة كثيراً نظراً للانقسام الدِّيني بين أطرافها، والذي تسبَّب عنه مجمع خلقيدونية - تحرَّك الملك الفارسي كسرى الثَّاني وهو العدو التَّقليدي للمملكة، وهيأ جيشين في وقت واحد، ومشى الأوَّل منهما إلى أنطاكية بقيادة شاهر براز، ومشى الثَّاني إلى الكبادوك وكيلكيَّة بقيادة شاهين، فاصلاً تلك المناطق، وتمركز فيها بغية قطع المواصلات والمؤن بين العاصمة القسطنطينيَّة وهذه البلاد المحتلَّة، وكان ذلك في سنة ٦١١م.

وفي ربيع سنة ٦١٤م مشى شاهر براز على القُدس ودخلها في شهر

مايو، وأحرق كنيسة القيامة، واستولى على عود الصَّليب في ١٥ مايو من تلك السَّنة كرهينة ثمينة، فاهتزَّت أركان مملكة الرُّوم لهذا الحدث الجلل.

وفي أغسطس سنة ٦١٥م اجتاز القائد شاهين(٢١) آسيا الصُّغرى بدون مقاومة، ودخل خلقيدونية، وتمركز فيها مهدِّداً بذلك مدينة القسطنطينيَّة نفسها، فألقى الرُّعب في القلوب.

وفي سنة ٦١٧م تمكَّن شاهر براز من دخول الإسكندريَّة، واحتل مصر كلَّها في سنة ٦١٨م. وفي سنة ٦٢١م – وكانت الأحوال قد ساءت في المملكة البيزنطيَّة، وانتشر الطَّاعون في البلاد، وبلغ القسطنطينيَّة – طلب هرقل الصُّلح مع كسرى، فرُفض طلبه، وكان الجواب مهيناً وطاعناً في الدِّين المسيحي مع الطَّلب بتسليم القسطنطينيَّة بدون قيد أو شرط.

فقد بعث قائد جيوش الفُرس يطلب إلى هرقل المفاوضة على الصُّلح، وقال مخبراً رسول الإمبراطور: قل لمولاك إنَّ دولة الرُّوم من أرضي، وما هو إلاَّ عاصي ثائر وعبد آبق، ولن أمنحه سلاماً حتى يترك عبادة الصَّليب ويعبد الشَّمس. فأحدثت هذه السُّبة هزَّة عنيفة أيقظت نفوس الرُّوم من رقادها، وأظهرت لهم أنَّ الحرب هي حرب دينيَّة فتملَّك الحماس القوم.

فصمَّم هرقل على الهجوم المباشر على كسرى في عُقر داره، وبدأ رحلته ثاني يوم عيد الفصح سنة ٦٢٢م. وهكذا استطاع بعد حرب دامت ست سنوات أن يحرِّر مملكته بأسرها من يد الفُرس. ففي ٢٩ فبراير سنة

٢١- يرى المؤرِّخ ألفريد بتلر A. Butler بعد بحث واستقصاء أنَّ الذي دخل إلى خلقيدونية هو ''خوريام'' الذي اشترك مع ''شاهين'' في قيادة الجيوش.
انظر: ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، الجزء الأوَّل، ص ١٠٦

٦٢٨م كان كسرى قد حرم ابنه كواذ – ويُسمى أيضاً شيرويه – من ولاية العهد لصالح أحد إخوته، فقام هذا على أبيه وقبض عليه وسجنه ثمَّ عذَّبه وأذلَّه وفي النِّهاية قتله، واستولى على العرش الفارسي، وأرسل للحال يلتمس من هرقل الصُّلح معه. فانسحب الفُرس فوراً من أرمينيا، وهكذا أمكن لهرقل أن يعود بسهولة إلى القسطنطينيَّة.

ولكن شاهر براز ظلَّ مسيطراً في بلاد ما بين النَّهرين وسوريا ومصر، لأنه لم يعترف بشرعيَّة كواذ، ولأنَّ الشَّعب في سوريا ومصر كان ثائراً على المملكة البيزنطيَّة في حياة كسرى، فكان على هرقل أن يتَّفق مع شاهر براز على إخلاء هذه البلاد ويعيد إليه عود الصَّليب. وحدث أن مات كواذ بعد ثمانية أشهر فقط من تبوئه العرش، فصار على هرقل أن يتفاوض رسمياً من جديد مع شاهر براز. وتمَّ الاتفاق على إخلاء البلاد من الجيش الفارسي، وتعود الحدود بين المملكتين كسابق عهدها، أي أن يكون الفاصل بينهما هو نهر الفرات، ثمَّ يكون تسليم الصَّليب إلى هرقل بالسُّرعة الممكنة. فعاد هرقل إلى القسطنطينيَّة ودخلها رسمياً في احتفال المنتصر، وذلك في أواخر أغسطس سنة ٦٢٩م حاملاً معه وفرة من الغنائم.

ثمَّ ما لبث أن انطلق مع زوجته الملكة مرتينا إلى آسيا في رحلة تفقديَّة في المنطقة، وكان الهدف الأساسي من الرِّحلة هو استلام عود الصَّليب الذي كان الفُرس قد تركوه هناك. ويبدو أنه كان محفوظاً في مدينة هيرابوليس (منبج) فحمله هرقل وسار به إلى مدينة بيرية (حلب) ثمَّ إلى حمص فدمشق، ومنها إلى طبريَّة فالقُدس التي دخلها على الأرجح في ٢١ مارس سنة ٦٣٠م.

وهكذا سار إلى المدينة المقدَّسة حيث اقترب منه موكب من القسوس والرُّهبان يحملون الأناجيل والشُّموع والمجامر، ودخل المدينة من بابها

الذَّهبي في الجانب الشَّرقي منها. وكان البطريرك زكريا في انتظاره هناك، وهنا خلع الإمبراطور ثيابه الفخمة ورداءه الأرجواني حتى يقترب من المواضع الطَّاهرة بما يليق بها من الخضوع والخشوع، حيث وضع الصَّليب المقدَّس في كنيسة القيامة في احتفال مهيب عُرف باسم "إعلاء الصَّليب" أو "رفع الصَّليب"(٢٢).

وقد حُفظت بقايا الصَّليب المقدَّس في صندوق من الفضَّة في أورشليم، بعد أن وُزِّعت أجزاء كثيرة منه على الكنائس في أنحاء العالم(٢٣).

ويذكر قطمارس الصَّوم الكبير(٢٤) في الكنيسة القبطيَّة، نقلاً عن ابن كبر (+ ١٣٢٤م) في كتابه "مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة"(٢٥) حادثة استرجاع الإمبراطور هرقل لخشبة الصَّليب المقدَّسة، والتي بسببها عُرف صوم الأسبوع الأوَّل من الصَّوم الكبير، وهو أسبوع هرقل. وهو ما ورد ذكره أيضاً عند الصَّفي ابن العسَّال في كتابه "المجموع الصَّفوي"(٢٦). ولقد شرحتُ هذا الأمر شرحاً وافياً في كتاب "صوم نينوى والصَّوم المقدَّس الكبير"، فارجع إليه هناك، إن رغبتَ، منعاً للتِّكرار.

تأثير هذا الحدث على طقس الاحتفال بعيد الصَّليب

هذا هو الحدث الأساسي الذي يتركَّز حوله طقس الاحتفال بعيد

٢٢- مجلَّة المسرَّة، حزيران ١٩٩٠م، ص ٨٤-٩٠

23- ODCC, 2nd edition, p. 710.

٢٤- قطمارس الصَّوم الكبير، طُبع في عهد البابا يوساب الثَّاني سنة ١٦٦٩ش/ ١٩٥٣م، ص ٢٦

٢٥- مخطوط رقم (٢٠٣ عربي) بالمكتبة الأهليَّة بباريس، وهو كتاب مصباح الظُّلمة وإيضاح الخدمة، لابن كبر، البَاب الثَّامن عشر.

٢٦- انظر أيضاً كتاب "المجموع الصَّفوي لابن العسَّال، عني بنشره جرجس فيلوثاؤس عوض، الجزء الأوَّل، بدون تاريخ، الباب الخامس عشر، ص ١٧٠

الصَّليب في الغرب في مثل هذا اليَوم(٢٧). فالعيد في الغرب هو عيد رفع خشبة الصَّليب المقدَّس في أورشليم سنة ٦٢٩م بواسطة الإمبراطور هرقل Heraclius حيث كان أوَّل احتفال به في الغرب في عصر البابا سرجيوس الأوَّل (٦٨٧-٧٠١م)(٢٨).

فقد ظلَّت خشبة الصَّليب المقدَّسة موجودة في كنيسة القيامة إلى أن غزا كسرى الثَّاني ملك الفُرس مدينة القُدس سنة ٦١٤م وانتصر على فوقا ملك الرُّوم، ودخل أورشليم، وسلب ذخائرها وعود الصَّليب معها. إلاَّ أنَّ الملك هرقل استرجع الصَّليب من خليفة كسرى. وقد أدخل الإمبراطور هرقل الصَّليب إلى أورشليم وهو يحمله على منكبيه من باب أورشليم إلى الهيكل حافي القدمين مكشوف الرأس بملابس بسيطة، ماراً به في شوارع أورشليم سنة ٦٢٩م(٢٩).

أمَّا كتاب القراءات الأرمني Armenian Lectionary الذي يعود تاريخه إلى سنة ٤٦٠م فيذكر الاحتفال بتكريم الصَّليب في يوم ١٤ سبتمبر (٢٧ سبتمبر في التَّقويم اليولياني)، وهو اليَوم الأوَّل من "أوكتاف" تكريس كنائس القسطنطينيَّة، وكان هذا العيد في الأصل هو عيد تكريم الصَّليب المقدَّس(٣٠).

علاقة هذه الأحداث الثَّلاثة بيوم ١٧ توت

يقول السِّنكسار القبطي تحت يوم ١٧ توت: "لما أخرجت الملكة

27- ODCC, 2nd edition, p. 489.

28- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 144.

٢٩- كان هذا في زمن بطريركيَّة البابا بنيامين الأوَّل في مصر.

30- A. Baumstark, *op. cit.*, p. 144.

هيلانه الصَّليب المقدَّس، بنت له كنيسة، وكُرِّست في السَّابع عشر من شهر توت''. ولكن السِّنكسار القبطي يورد تفصيلات أكثر لهذه العبـــارة السَّابقة تحت يوم ١٦ توت فيقول: ''نعيِّد في هذا اليَوم من ســـنة ٣٢٦م لتكريس هياكل القيامة في أورشليم. وذلك أنه في السَّنة العشرين من مُلك قسطنطين، وبعد اجتماع المجمع المقدَّس بنقية، قالت الملكة هيلانه لابنـــها قسطنطين إنها كانت قد نذرت الذِّهاب إلى أورشليم، والتَّبرُّك من المواضع المقدَّسة، والبحث عن عود الصَّليب المحيي. ففرح بذلك وأعطاها أمـــوالاً كثيرة، وأصحبها بعدد كبير من العسكر. ولَّما وصلت إلى هناك وتباركت من الآثار المقدَّسة، فتَّشت عن عود الصَّليب حتى وجدته بعـــد التَّعـــب الشَّديد، فمجَّدته تمجيداً عظيماً، وأكرمته إكراماً جزيلاً، وأمـــرت ببنـــاء هياكل القيامة والجلجثة وبيت لحم والمغارة والعليَّة والجســـمانيَّة وســـائر الهياكل ... ولما رجعت إلى ابنها وأعلمته بما صنعت، فرح وأرسل أموالاً طائلة ... ولما كمُل البناء في السَّنة الثَّلاثين من مُلكـــه[٣١]، أرســـل أوان وكساو ثمينة، كما أرسل إلى بطريك القسطنطينيَّة وإلى أثناسيوس بطريك الإسكندريَّة ليأخذ كل منهما أساقفته ويذهب إلى القُـــدُس. فـــذهبا إلى هناك، واجتمعا ببطريك أنطاكيا وأسقف القُدس ومكث الجميع إلى اليَوم السَّادس عشر من شهر توت، فكرَّسوا الهياكل التي بُنيـــت. وفي السَّـــابع عشر منه طافوا بالصَّليب تلك المواضع وسجدوا فيها للـــرَّب، وقـــدَّموا القرابين، ومجَّدوا الصَّليب وكرَّموه، ثمَّ عادوا إلى كراسيهم ...''.

ثمَّ يعود السِّنكسار ليذكر تحت اليَوم السَّابع عشر من شهر تـــوت أنَّ ظهور الصَّليب المجيد كان في العاشر من شهر برمهات (١٩ مارس)، ولأنه دائماً يكون في فترة الصَّوم الكبير، فقد استبدله الآباء بيوم ١٧ توت الذي هو تكريس كنيسة القيامة.

٣١- حيث استمر البناء لمدَّة عشر سنوات.

ويضيف السِّنكسار أيضاً: ''إنه في هذا اليَوم اعتادت الشُّـــعوب المسيحيَّة أن تذهب إلى كنيسة القيامة – التي بُنيت على قبر المخلِّص – في عيد تكريسها في مثل هذا اليَوم بجموع غفيرة''. وذكر السِّنكسار قصَّـــة رجل يُدعى اسحق السَّامري كان يبكِّت النَّاس على تكبُّدهم مشاق السَّفر إلى أورشليم للسُّجود لخشبة. ولكنه آمن بعد أن عطشوا في الطَّريـــق ولم يجدوا ماءً، حتى وجدوا بئراً كان منتناً مُراً، صار حلـــواً برســـم علامـــة الصَّليب. ولما وصل إلى القُدس ذهب إلى أسقفها وتعمَّد هو وأهل بيته.

ونفس هذه القصَّة قد أوردها الدِّفنار أيضاً بلحن واطـــس بقولـــه: ''السَّلام لك أيها الصَّليب الذي جعل في المياه المُرَّة حلاوة، وشربت منها شعوب المؤمنين. السَّلام لك أيها الصَّليب الذي استحق أن يؤمن به اسحق السَّامري وكل الذين معه''.

لقد تعدَّدت الآراء حول يوم اكتشاف الصَّليب المقدَّس بواسطة الملكة هيلانه. فالسِّنكسار القبطي يُرجعه إلى يوم ١٠ برمهات أي يوم ١٩ مارس بالتَّقويم اليولياني، وهو يقابل يوم ٥ أو ٦ مارس بالتَّقويم الجريجوري الذي تعمل به الكنائس الشَّرقيَّة الأخرى. ويؤكِّد السِّنكسار اليوناني هذا الأمر، حيث يذكر أنَّ الصَّليب وُجد في ٦ آذار/ مارس. إلاَّ أننا نجد أنَّ بعـــض السِّنكسارات الأخرى تقول إنه وُجد في شهر آيار/ مايو. وفي الحقيقة فإنَّ اكتشاف الصَّليب المقدَّس قد حدث فعلاً في الرَّبيع، وهو ما اتَّفقت عليـــه جميع الكنائس شرقاً وغرباً، حيث ظلَّت الكنيسة الغربيَّـــة تحتفـــل بعيـــد الصَّليب في يوم ٣ مايو، وذلك قبل استرجاعه من الفُرس سنة ٦٢٩م[٣٢]. فتذكار يوم ٣ مايو والذي حُفظ في كتب الأبوكريفا قد حُفـــظ أولاً في بلاد الغال حتى القرن السَّابع، ثمَّ دخل إلى روما سنة ٨٠٠م ولكنه أُلغـــي

32- ODCC, 2nd edition, p. 489.

سنة ١٩٦٠م(٣٣).

أمَّا عن الاحتفال بالصَّليب في شهر سبتمبر، فهو الاحتفال بتدشين هياكل كنيسة القيامة في يوم ١٣ أيلول/ سبتمبر سنة ٣٣٥م حيث دام الاحتفال بهذا التَّدشين ثمانية أيام. وفي اليَوم التَّالي من هذه الاحتفالات — أي اليَوم الثَّاني منها وهو يوم ١٤ أيلول/ سبتمبر – رفع مكاريوس أسقف المدينة المقدَّسة آنذاك الصَّليب أمَّام الشَّعب، فهتف الشَّعب "يارب ارحم". وتقول السَّائحة الأسبانيَّة إيجيريا في القرن الرَّابع: إنه تمَّ تعيين عيد التَّدشين في هذا اليَوم بسبب اكتشاف عود الصَّليب. وهكذا نرى الدَّمج ما بين العيدين، أي تدشين هياكل كنيسة القيامة ورفع الصَّليب الكريم.

وتشهد الوثائق القديمة أنَّ تدشين هياكل كنيسة القيامة كان في يوم ١٣ أيلول/ سبتمبر طبقاً للتَّقويم الجريجوري، والذي يوافق الآن يوم ٢٦ سبتمبر بحسب التَّقويم اليولياني الذي تتبعه كنيسة الإسكندريَّة حتى الآن. أمَّا التَّعييد للصَّليب المقدَّس فقد كان في اليَوم التَّالي مباشرة أي يوم ١٤ سبتمبر من كل عام بحسب التَّقويم الجريجوري، والذي يقابل يوم ٢٧ سبتمبر بحسب التَّقويم اليولياني (١٧ توت).

ويُسمَّى هذا العيد في الكنيسة القبطيَّة "عيد الصَّليب المجيد". أمَّا الكنيسة البيزنطيَّة فتدعوه "عيد رفع الصَّليب الكريم المحيي". وهو يُسمَّى في كنائس الغرب بأسماء: "عيد تكريم صليب المسيح"، و"عيد الصَّليب المقدَّس"، و"عيد رفع الصَّليب المقدَّس".

إذاً فقد صار يوم ١٤ سبتمبر (٢٧ سبتمبر عند الأقباط) هو اليَوم الذي تحتفل فيه جميع الكنائس بعيد الصَّليب، وذلك منذ عصور مبكِّرة.

33- ODCC, 2nd edition, p. 710.

كما ارتبط عيد الصَّليب بعيد تذكار تكريس كنيسة القيامة سنة ٣٣٥م.

ونلاحظ هنا أنَّ العيد يُسمَّى في كل من الكنيسة البيزنطيَّة والكنيسة الغربيَّة باسم "عيد رفع الصَّليب". ولكن الفرق بين التَّقليدين البيزنطي والغربي هو أنَّ الكنيسة البيزنطيَّة تعني برفع الصَّليب أي تذكار رفع الصَّليب المقدَّس على الجلجثة بواسطة البطريرك مكاريوس الأورشليمي سنة ٣٢٦م، حيث يظهر من سيرة القدِّيس يوحنا ذهبي الفم (٣٤٧-٤٠٧م) ومن قصَّة مريم المصريَّة وغيرهما، أنَّ الكنيسة الشَّرقيَّة كانت تعيِّد بهذا العيد قبل استرجاع الصَّليب من الفُرس في القرن السَّابع الميلادي. أمَّا الكنيسة الغربيَّة فالعيد عندها هو لتذكار رفع الصَّليب ونصبه في الجلجثة بعد استرجاعه من الفُرس في عهد الملك هرقل سنة ٦٣٨م. وجدير بالذِّكر أنَّ الكنائس الشَّرقيَّة قد ضمَّت هذا الحدث الأخير إلى عيد رفع الصَّليب الذي حدث قبلاً سنة ٣٢٦م وعيَّدت له أيضاً في يوم ١٤ سبتمبر.

وفي بغداد كان عيد الصَّليب يوم عطلة عامة، ويشترك المسلمون مع النَّصارى في الاحتفال به. وكانت الاحتفالات التي تتم في الأديرة المسيحيَّة تُظهر أيضاً هذه المشاركة(٣٤).

وماذا بعد؟

لقد تخضَّب الاحتفال بالصَّليب وإعلائه بدماء غزيرة أريقت، ومذبحة مروِّعة لليهود لم ينسها التَّاريخ. وشتَّان بين ما فعل المسيح المصلوب بصالبيه عندما طلب الغفران والصَّفح لهم، وبين أتباع المصلوب الذين

٣٤- ناريمان عبد الكريم، معاملة غير المسلمين في الدَّولة الإسلامية، الهيئة المصريَّة العامة للكتاب، ١٩٩٧م، ص ١٧١، ١٧٢

أعملوا السَّيف والقتل في القوم أنفسهم، فحقَّ على القـاتلين قـول الإنجيل وهو لا يسقط أبداً: «الذين يُهلكون بالسَّيف، بالسَّيف يَهلكون». فهؤلاء اليهود الذين هرب منهم من استطاع الهرب إلى الصَّحراء فيما بعد نهر الأردن، قد تربَّصوا هناك الدَّوائر بأعدائهم، وقلوبهم تتَّقد بنار الغـيظ وطلب الثَّأر، حتى لاحت لهم أعلام الإسلام، وهي طالعة، فرحَّبوا بهـذه الجموع التي جاءت تطلب قتال الدَّولة الرُّومانيَّة، وصاروا لهم مرشدين في تلك البلاد، ولابد أنَّ ذلك كان في سنة ٦٣٤م حيث كان العـرب قـد دخلوا بلاد الفُرس بقيادة خالد بن الوليد.

وكأنَّ الصَّليب لم يرض بما فعله أتباعه من شرور تحت اسم الصَّليب، فلم يستقر له مقام في أورشليم بضعة سنين لم تبلغ أصابع اليد الواحـدة. فبعد معركة اليرموك، جاز العرب نهر الأردن وكانت هيبتهم تسـبقهم، فتُوقع الرُّعب في قلوب أهل البلاد، فأخذ أهل بيت المقـدَّس الصَّـليب المكرَّم، وكل ما كان في الكنائس من الآنية، ووضعوها عنـد السَّـاحل، حيث شحنوها في سفينة وبعثوا بها إلى القسطنطينيَّة إلى الإمبراطور الـذي أوهنه المرض وفتت عليه الأكباد. فاختلط فرح النَّاس بالصَّليب بحزن خيَّم عليهم إذ رأوا في عودة الصَّليب إليهم رمزاً لإخفاق ملكهم وخيبته. ويقيناً أنَّ الأقدار لم تسخر من هرقل سخراً أقطع حداً ولا أمر مذاقاً من هذا على كثرة ما أنزلته من نكبات.

وحاصر العرب مدينة القُدُس، ولمَّا لم يكن لهم عهـداً بالحصـار في حروبهم، ولم تكن لديهم عدد وآلات لصدع الأسوار، اكتفـوا بحصـار المدينة مدَّة استطالت زمن الشِّتاء كلِّه - شتاء سنة ٦٣٦/ ٦٣٧م - ولعلَّها كانت أطول من ذلك.

ولم يأت من قبَل الرُّومان أنباء تجعلهم يؤملون في النَّجدة، ولم يكـن بأهل المدينة قوَّة ترفع الحصار عنهم، وقد قاربت المئونـة علـى النَّفـاذ،

واقترب وقوع المجاعة. وما أن وصل الأمر إلى ذلـك حـتى اضـطَّر البطريرك الملكاني صفرونيوس (٦٣٤- ٦٣٨م) بطريرك أورشـليم علـى مفاوضة العرب من فوق الأسوار، واتَّفق على أن يسلِّم المدينة على شرط أن يأتي الخليفة عُمَر بنفسه ليكتب عهدها.

وجاء عُمَر إلى الشَّام على جمل، وكان خشن الملبس والهيئة، وخـتم العهد، وزار الأماكن المقدَّسة بصحبة صفرونيوس، فالتفت ذلك البطريرك إلى أصحابه وقال لهم باللُّغة اليونانيَّة: ''هذا هو الرِّجس الآتي من القفـر، الذي ذكره النَّبي دانيال''. وكانت هذه هي آخر مقالة وردت عن ذلـك البطريرك صاحب اللِّسان المعسول في الدِّفاع عن الدِّين. وقد شهد مـرَّة ثانية آخر حياته أسر بلاد صهيون، وكان حزنه وألمه لذلك الأسر الأخـير سبباً في الإسراع به إلى قبره.

ولم تمض بضع مئات من السِّنين حتى سلَّمت القسطنطينيَّة للإسلام، ونُقش اسم النَّبي العربي حيث هو اليَوم على جدران الكنيسـة الكُـبرى، كنيسة آجيَّا صوفيَّا، التي صارت جامعاً من جوامع المسـلمين. وبانهيـار القسطنطينيَّة انهارت دولة الرُّوم، ذلك المارد العملاق الذي ظلَّ يجـول في الشَّرق ويصول طيلة خمسة عشر قرناً من الزَّمان(٣٥).

٣٥- ألفريد بتلر، فتح العرب لمصر، مرجع سابق، ص ١٤٢، ١٤٣، ١٤٨، ١٢٨